أنت تؤذيني

في زمنٍ زاد تقوقع الإنسان فيه على نفسه وقلّ تفاعله مع الآخرين باستغنائه عنهم، كوّن الناس مسترشدين بالغرب سياسة التزام كلٍّ بمساحته وتجنبه لمساحه الآخر. حتى إلقاء السلام يرفع أحياناً حاجبيْ دهشةٍ إلا أن يُلقى بصوتٍ خفيضٍ بما يؤكد للآخر أنه ليس مفروضاً فرضاً وإنما ألقيَ معذرةً إلى الله.

وأصبح الإنسان لا يطيق أن يُنصح، أو أن يلام، وكل منا يريد أن يمارس حريته الكاملة أو شبه الكاملة حتى خارج مساحته الحقيقية التي لا تكون إلا في بيته حيث لا يراه الآخرون وحيث لا يسوؤه أن يستهجنوا ما يفعل..

في محل البقالة كنت أمشي بسلامٍ باتجاه ما اريد أن أشتريه.. أمرّ أمام قسم الأشربة حيث طفل لم يكمل عامه الثالث يطلب شراباً ثم يتسلق العربة قيلتقط علبة عصير.. أتجاوزه فإذا بي أسمع ضربةً ذات لسعةٍ مؤلمة على الجزء العاري من ظهره ثم صوتٌ أجش يرتفع بما يزعج كل من في المكان مقرّعاً الطفل الذي ارتفع صوت بكائه قهراً وألماً بعد اللسعة وبعد انتزاع العلبة من يده.. يلتفت كل من في المكان..

لا أحد يحب أن يقحم نفسه في مساحة الآخر، ولكن هناك أشياءٌ تقتحمنا.. فأنا عندما خطوت خطوةً جديدة بعد سماع الضربة لم أكن أنا التي كانت تمشي بسلامٍ قبلها بلحظة..

ولم أستطع أن أمنع التساؤل داخلي: أكلُّ ذلك من أجل ريالين؟! ومع ذلك فهو مالك وطفلك ولا أحد يريد أن يتدخل في شؤونك أو يملي عليك شيئاً، ولكن هلّا لزمت مساحتك أنت أيضاً؟ حياتك الأسرية تحياها كما تشاء، ولكنك عندما تمارس قسوتك في مكانٍ عام فأنت حتماً تقتحم مساحة الآخرين. فإذا لامك أحدهم يوماً فلا ترفع كفك في وجهه وتقول له هذا ليس من شأنك.

دلال خليفة

نشر في ملحق الشرق الثقافي بتاريخ ٢٠١٣/١٢/٢٩